الدين.. والحضارة

ـ ١ ـ

الإسلام.. الدين

الإسلام: دين التوحيد.. توحيد الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الألوهية.. والربوبية.. والذات... والصفات.. والأفعال.. حتى إنه قد بلغ فى هذا التصور التوحيدى قمة التنزيه والتجريد، اللذين لا تستطيع اللغة البشرية التعبير عن حقيقة كنههما.. وإنما ـ فقط ـ تضرب لهما الأمثال التى تقربهما إلى التصورات.. فخلاصة الإسلام، والإخلاص للإسلام، هو التوحيد الذى جاءت به سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١، ٤].. والله ـ سبحانه وتعالى ـ فى التصور الإسلامى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وبعبارة فلاسفة الإسلام: «فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك»!..

وعلى حين ترى مذاهب وفلسفات أخرى أن لله صورة، وأنه قد خلق آدم على صورته ـ أى على صورة الله ـ فإن الإسلام العقيدة ـ ومعه العربية اللغة ـ وهى لغة كتابه وشريعته ـ يفسر هذه المأثورة ـ «**لقد خلق الله آدم على صورته**» ـ رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد ـ بأن الله قد خلق آدم عليه السلام على صورته، أى صورة آدم، إذ الضمير، فى «صورته»، يعود إلى أقرب مذكور، فسبحان الله وتنزه عن التصور والصُّور والتصوير.

* * *

وشريعة الإسلام: هى الدرجة العليا والأخيرة والخاتمة فى سلم شرائع النبوات والرسالات، التى توالت ـ فى إطار دين الله الواحد ـ من آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام.. لذلك، جاءت هذه الشريعة الإسلامية مصدقة ومستوعبة لما بين يديها، ولما

سبقها من النبوات والرسالات والكتب والصحائف والألواح . . مصدقة فى ثوابت عقائد الدين الإلهى الواحد وقيمه . . ومهيمنة على تلك الشرائع ، بالتصحيح لما حدث فيها من التحريف والتغيير والتبديل . . وبالتذكير لما وقع فيها النسيان . . وبالتجديد والإضافة فيما تجاوزه التطور الزمانى والتغير المكانى والتبدل فى الأعراف . . كما جاءت هذه الشريعة الإسلامية الخاتمة بالانتقال بنطاق التشريع الإلهى من المحلية إلى العالمية . . ومن التوقيت إلى الخلود . . ومن مجرد «الدعوة الدينية» إلى «المنهاج الشامل» للدين والدولة والأمة والحضارة والاجتماع . . وذلك حتى تحرس الدولة الدين ، ويسوس الدين الدولة . . فلم تقف هذه الشريعة ـ فقط ـ عند مملكة السماء ـ خارج هذا العالم ـ وإنما شملت الدنيا مع الآخرة ، والفرد مع المجموع ، والآخر مع الذات . . ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

وإذا كانت آيات العالمية فى القرآن الكريم قد نزلت فى المرحلة المكية ، قبل الهجرة والدولة ، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف : ١٠٤] ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، فإن هذه العلاقة بين الشريعة الإسلامية وبين أهل الشرائع الإلهية السابقة قد أخذت طريقها إلى «التنظير» و«التقنين» و«التطبيق» منذ اللحظات الأولى للعلاقات التى قامت بين الأمة الإسلامية ودعوتها ودولتها وبين أهل تلك الشرائع والديانات .

ـ ففى دولة المدينة المنورة ، ومنذ العام الأول لقيامها ـ سنة ١ هـ سنة ٦٢٢م ـ نص «دستورها» ـ الذى اشتهر بـ «الصحيفة» و«الكتاب» ـ على : **أن «يهود أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، غير مظلومين ولا مُتناصَر عليهم . . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصحية والبر دون الإثم»**[1] .

وفى أول لقاء مع النصرانية ـ سنة ٧ هـ سنة ٦٢٨م ـ السنة التى بدأت فيها العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ـ خاطب الصحابى «حاطب بن أبى بلتعة» [٣٥ ق . هـ ـ ٣٠ هـ ٥٨٦ ـ ٦٥٠م] «المقوقس» ـ عظيم القبط فى مصر ـ محدداً علاقة الإسلام بما سبقه من شرائع ورسالات . . فقال ـ «للمقوقس» ـ : «**إن لك دينًا ـ [أى النصرانية] ـ لن تدعه**

إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التورة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به..»[٢].

فلما استقبل رسول الله ﷺ، وفد نصارى «نجران» - فى المدينة سنة ١٠ هـ سنة ٦٣١م. فتح لهم باب مسجد النبوة، فصلوا فيه صلاتهم لعيد الفصح.. وقنّن لهم - فى العهد الذى كتبه لهم - علاقة الشريعة الإسلامية ودولتها بالشريعة النصرانية والمتدينين بها، وهى علاقة «المواطنة» الكاملة فى ظل الدولة الإسلامية والمرجعية الدينية والأمة الواحدة.. صنع ذلك رسول الله ﷺ عندما كتب لهم: **«لنجران وحاشيتها وسائر من يتنحل دين النصرانية فى أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم.. أن أحمى جانبهم، وأذب عنهم، وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملّتى.. لأنى أعطيتهم، عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»**[٣].

فقرر الإسلام وقنّن - منذ ذلك التاريخ - كامل حقوق المواطنة، انطلاقًا من الدين، وعلى أساس من العقيدة الإسلامية - وليس على أنقاض الدين والاعتقاد الدينى - كما هو حال «المواطنة» فى حضارات أخرى!

* * *

والإسلام: هو الدين القيِّم.. ودين القيم.. أى الدين المستقيم، والمقوِّم لأمور الناس **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾** [الروم: ٤٣].. **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الأنعام: ١٦١].

وهو دين القيِّمة.. أى دين الأمة التى تسلك سبيل العدل والاستقامة **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾** [البينة: ٥].. فمساحة القيم والأخلاق فى شريعة الإسلام هى مصدر القانون، والمعيار لإسلامية هذا القانون.

والإسلام: دين البيِّنة، التى تبين الشىء وتوضحه، حسيًا كان هذا الشىء أو عقليًا. . ولقد ورد هذا المصطلح ومشتقاته فى القرآن الكريم فى ثلاثمائة وسبعة وخمسين موضعا: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]. . ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

* * *

والإسلام: دين البرهان، أى الحجة الفاصلة البينة. يقيم البرهان على عقائده وحقائقه. . ويدعو الآخرين إلى البرهنة على ما لديهم من مقولات وتصورات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]. . ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. . ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. . ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. . ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ ـ ٦٤].

والإسلام: علم ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾

[آل عمران: ٦١].

والله ـ فى الإسلام ـ هو ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ٩٤]. وأولو العلم، فى الإسلام، هم ـ مع الله والملائكة ـ القائمون بالقسط ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وهم الأكثر خشية لله، عندما يكتشفون أسرار الإبداع الإلهى والقدرة الإلهية فى الكون ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

لذلك، فإن الإسلام إذا حاكم واحتكم إنما يحاكم إلى العلم وإليه يحتكم: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤].

* * *

والإسلام نور واستنارة وتنوير إيمانى ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] ـ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والله ـ فى الإسلام ـ نور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ـ والقرآن نور: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨] ـ وكذلك «الحكمة» ـ التى هى الصواب العقلى ـ هى الأخرى نور. . وفى الحديث النبوى يقول رسول الله ﷺ: «**إن الله يحيى القلوب بنور الحكمة**» ـ رواه الإمام مالك فى [الموطأ] ـ ورسول الإسلام ﷺ نور: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

* * *

ـ ٢ ـ

العدل الإسلامى

والعدل ـ فى الإسلام ـ اسم من أسماء الله ـ سبحانه وتعالى[٤].

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمر بالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ولأن العدل نقيض الظلم، فلقد حرّم الله الظلم على نفسه، وعلى عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]. ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ولذلك، كان العدل هو الروح السارية فى الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية. . فلقد حرّم الإسلام حتى ظلم الإنسان لنفسه، ومن باب أولى ظلمه لغيره ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

ولقد أوجب الإسلام العدل فى كل المعاملات والعلاقات، حتى مع من نكره ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. وحتى مع من يُقاتلنا ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ولقد أسس الإسلام فريضة العدل مع الآخرين على سنة من سنن الله الكونية والتكوينية التى لا تبديل لها ولا تحويل. . وليس على مزاج يتغير، أو خُلق يتبدل. . فالتنوع والاختلاف ـ أى وجود الآخرين ـ هو سنة من سنن الله فى كل عوالم

المخلوقات . . والواحدية والأحدية هى، فقط، للذات الإلهية، ومن عداه وما عداه ـ فى عـوالم الإنسـان . . والأفكار . . والشـرائع والملل . . والمناهج والثـقـافـات والحضارات . . والألسنة واللغات والقوميات . . والأجناس والألوان . . والشعوب والقبائل ـ بل وفى النبات والحيوان والجماد ـ هذا التنوع والتمايز والاختلاف فى جميع هذه العوالم سنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل . . والتعارف ـ المؤسس على التعايش والتعاون والتحاور ـ هو المقصد الأسمى لهؤلاء الفرقاء المختلفين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. . أى وللتنوع والاختلاف والتمايز خلقهم . . وفى هذا التنوع والاختلاف الحافز على التسابق فى طريق الخيرات بين المختلفين: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وإذا كان الإسلام قد اعترف بكل النبوات والرسالات والكتب والشرائع التى توالت على طريق علاقة السماء بالإنسان، عبر التاريخ الطويل للنبوات والرسالات ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وتجاوز ـ بذلك ـ مجرد الاعتراف بالآخر إلى حيث جعل هذا «الآخر» جزءًا من «الذات»، عندما قرر أن تنوع الشرائع السماوية إنما هو تمايز فى إطار وحدة دين الله . . فلكل أمة شرعة، أما الدين فواحد . . والأنبياء ـ ومن ثم أممهم ـ إخوة، أمهاتهم ـ أى شرائعهم ـ شتى وأبوهم ـ أى دينهم ـ واحد . . وفى هذا المعنى وهذه الفلسفة جاء حديث رسول الله، ﷺ: «**الأنبياء أولاد عَلاّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**» ـ رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد.

ولهذه الحقيقة ـ حقيقة نظرة الإسلام هذه إلى «الآخر»، وعلاقته به.. كان العدل الإسلامى الذى حرص دائمًا على أن يميز بين الفرقاء والفصائل والمذاهب والتيارات والطوائف فى هذا «الآخر»، فلا يعمم ولا يضع الجميع فى «سلة» واحدة، كى لا يظلم بهذا التعميم.. ولذلك، لا نجد الإسلام ـ مثلا ـ يضع أهل الكتاب جميعهم فى «سلة» واحدة، فيعمم الحديث عنهم، وإنما نجده يتحدث عن «كثير» من أهل الكتاب.. و«طائفة» من أهل الكتاب.. و«فريقًا» من أهل الكتاب.. فهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. وإنما ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ ومنهم الذين ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.. يسلك القرآن الكريم سبيل العدل هذا، فيميز بين الفرقاء المتمايزين وفق تمايزهم وعلاقاتهم بالكلمة السواء.. فنقرأ فيه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٦]، ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩] ـ ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىَ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىَ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فمن أهل الكتاب: ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ ومنهم من هم ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومنهم من هم أقرب مودة للذين آمنوا ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىَ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وإذا كانوا ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ . . فإن جزاءهم عند الله ليس واحداً . . فالذين كفروا منهم ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦]، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: ٦٩].

والمسلمون يدعون كل فرقاء «الآخر» إلى كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ـ والجدال معهم يجب أن يكون، ليس فقط بالأسلوب الحسن، وإنما بالأحسن ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ـ فالكلمة السواء هي أصول الإيمان الثلاثة: التوحيد لله . . والإيمان بالغيب . . والعمل الصالح . . مع التنوع في الشرائع داخل أصول هذه الكلمة السواء . .

ولهذا العدل الإسلامي، لم يعمم القرآن الكريم الحكم بالتحريف على كل ما لدى أهل الكتاب، وإنما نبه على أن فيما لديهم هدى ونوراً ـ فـ ﴿الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣].

هكذا بلغ الإسلام الذروة في العدل مع كل ألوان أطياف «الآخرين» و«المخالفين».

* * *

ـ ٣ ـ
السماحة الإسلامية

ولأن الإيمان ـ فى الإسلام وبالإسلام ـ هو تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، استحال الوصول إلى هذا الإيمان بأى لون من ألوان الإكراه، فكانت القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لذلك كان سبيل الإسلام إلى القلوب هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، فمن استجاب قلبه كان مؤمنًا بالإسلام.. ومن أعرض قلبه، فـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].. وحسابه فى ـ الآخرة ـ إلى الله وعلى الله.. أما فى الدنيا، فإن «له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين».

ولهذه الحقيقة كان انتشار الإسلام سلميًا.. بل ودون مؤسسة تبشيرية ترعى وتعمل على هذا الانتشار.. وإذا كانت أغلب بقاع عالم الإسلام وأكثر شعوب الأمة الإسلامية عددًا لم تجر فيها فتوحات ولا حروب إسلامية.. فإن كل حروب الإسلام إنما كانت دفاعا عن حرية الاعتقاد، وحرية الضمير، وحرية الاختيار، وحرية الوطن الذى يعيش فيه المسلمون.. فكل غزوات عهد النبوة إنما كانت ضد الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وفتنوهم فى دينهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠]، ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧ ـ ٩].

فلم يعرف الإسلام «حروبًا دينية»، لقهر المخالفين على الإيمان به.. وكل ضحايا غزوات عهد النبوة من الجانبين ـ شهداء المسلمين وقتلى المشركين ـ هم، على سبيل الحصر ٣٨٦ قتيلا!! ـ ١٨٣ هم جملة شهداء المسلمين.. و٢٠٣ هم جملة قتلى المشركين[٥].. بينما ضحايا «الحروب الدينية»، داخل النصرانية ـ بين الكاثوليك والپروتستانت ـ قد بلغت عشرة ملايين ـ وفق إحصاء «ڤولتير» [١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م] ـ أى ٤٠٪ من شعوب وسط أوروپا أبيدوا فى هذه الحروب الدينية التى امتدت نحو قرنين من الزمان!

أما كل معارك الفتوحات الإسلامية، فى القرن الهجرى الأول، فإنها كانت ضد جيوش القوى الاستعمارية التى قهرت الشرق، سياسيًا وحضاريًا ودينيًا وثقافيًا، لأكثر من عشرة قرون.. ضد جيوش القيصرية الرومانية والكسروية الفارسية.. ولم تدر معركة واحدة بين جيوش الإسلام وبين أهل البلاد المفتوحة.. بل لقد وقف أهل تلك البلاد ـ وهم على دياناتهم القديمة ـ مع جيوش الفتح الإسلامى، وشاركوا فى هذه الفتوحات.. ورأوا فيها تحريرًا لأوطانهم من القهر الاستعمارى الرومانى.. وتحريرًا لضمائرهم وعقائدهم من القهر الدينى والحضارى.. بل ورأوها إنقاذًا إلهيًا لهم ـ على يد المسلمين ـ وعقابًا إلهيًا للمستبدين الرومان.

وبهذه الحقيقة شهد الأسقف «يوحنا النقيوسى» ـ وهو شاهد عيان على الفتح الإسلامى لمصر ـ فقال: **«إن الله، الذى يصون الحق، لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين ـ [العرب المسلمين] ـ ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١م] حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا فى مدينة مصر، وبأمر الله الذى يأخذ أرواح حكامهم، مرض «هرقل» ومات.. وكان عمرو بن العاص يقوى كل يوم فى عمله، ويأخذ الضرائب التى حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما سلبًا أو نهبًا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام..»**[٦].

وشهد بذلك أيضًا الأسقف «ميخائيل السريانى» فقال: **«لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت، ولهذا، فقد انتقم الرب منه، لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام»**[٧].

فالفتوحات الإسلامية كانت تحريراً لأوطان الشرق من الاستعمار والاستعباد والاستغلال الرومانى.. وكانت «إنقاذًا» لنصارى الشرق ونصرانيتهم من القهر الرومانى.. حررت الأرض.. وحررت ضمائر الشعوب، ثم تركتهم وما يدينون فى «سلام».. فكانت نصرانية الشرق ـ بهذه الفتوحات ـ «هبة الإسلام»!

* * *

ـ ٤ ـ

الإسلام .. الحضارة

ولأن الإسلام «دين» و«دولة» و«حضارة»، فلقد فجّر، منذ ظهوره، «الإبداع الحضارى» مع هدايته القلوب إلى «الإيمان بالله».

فبينما اقترن انتشار النصرانية فى أوروبا ـ فى القرن الرابع الميلادى ـ ببدايات العصور الأوروبية الوسطى ـ والمظلمة، التى بدأت فى القرن الخامس الميلادى، وامتدت عشرة قرون.. حتى إن أوروبا النصرانية لم تعرف أول فلكى فى تاريخها ـ «كوبرنيكوس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م] ـ إلا فى القرن السادس عشر.. وكتابه الذى كتبه عن [دوران الأفلاك] سنة ١٥٣٠م، لم يطبع إلا بعد وفاته.. وظل مُصادَرًا من قبل الكنيسة حتى القرن الثامن عشر ـ سنة ١٧٥٨م!!..

بينما حدث هذا لأوروبا المسيحية، فجّر الإسلام ـ منذ ظهوره ـ الإبداع الحضارى، فى علوم التمدن المدنى، مع علوم العقيدة والشريعة والتفسير والحديث..

إن أوروبا المسيحية قد تخلفت عن العلوم المدنية والطبيعية عشرة قرون، فى ظل نصرانيتها، بينما فجّر الدين الإسلامى الإبداع الحضارى فى العلوم المدنية والطبيعية منذ القرن الهجرى الأول.. ولقد وقفت خلف هذا الامتياز والتميز الإسلامى أسباب عديدة.. فى مقدمتها:

تميز النظرة الإسلامية «للطبيعة» و«العالم» عن النظرة المسيحية لهذه «الطبيعة» وهذا «العالم».. فالطبيعة والعالم ـ فى النظرة الكنسية ـ «مدنّس»، فى مقابل اللاهوت «المقدس»، ومملكة هذا اللاهوت الكنسى أشرف من أن تتحقق فى هذا العالم «المدنّس»!.. لذلك، كان الاشتغال بالعلوم الطبيعية والتجريبية عملاً شيطانيًا؛ لأنه طلب للعلم خارج «المقدس» ـ الإنجيل واللاهوت.. وكانت «التجارب» ـ فى ظل هذا

اللاهوت الكنسى ـ كالعمل اليدوى ـ فى ظل الفكر الإغريقى ـ مما لا يليق بالأحرار والأشراف . . وإنما هى من عمل العبيد الأرقاء ! . .

ومن هنا كان اضطهاد الكنيسة لكل الذين اشتغلوا بالعلم التجريبى . . وكانت انتصارات هذه العلوم الطبيعية التجريبية ـ فى النهضة الأوروبية ـ على أنقاض سلطان الكنيسة وسلطات رجال الدين ، وفى ظلال العلمانية ، التى استبدلت «الدين الطبيعى» «بالدين الإلهى» ، وجعلت العالم والطبيعة المصدر الوحيد للمعرفة ، بل وألهت الطبيعة ، وأحلتها محل الله ، وجعلت مملكتها فى هذا العالم وحده ، منكرة عالم الغيب ومملكة السماء . .

هكذا تأخر العلم الطبيعى ـ فى أوروبا المسيحية ـ حتى استردت العلمانية «الشرف» للطبيعة ، فى ثورتها على اللاهوت .

ـ أما الإسلام ـ الذى اقترن فيه «الإيمان» بـ «العمل» ـ فإنه قد رأى ويرى فى هذه «الطبيعة» خليقة مخلوقة لله ، ـ سبحانه وتعالى ـ مثلها فى ذلك مثل الإنسان ، وكل عوالم المخلوقات . . فلها ـ ككل المخلوقات ـ شرف الخلق الإلهى . . بل إن هذه الطبيعة ـ فى الرؤية الإسلامية ـ حية مؤمنة بخالقها ، وهى تسبحه كما نسبحه ، حتى وإن لم نفقه نحن تسبيحها ! . . إن لها شرف الخلق الإلهى ـ حتى إن الإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م] كان يؤثر أن يسميها «الخليقة» ، بدلاً من «الطبيعة» ـ ولها شرف الخطاب الإلهى لها . . بل وعرض الأمانة عليها . . ولها ـ كذلك ـ شرف العبادة والتسبيح لله ! . .

ثم إن هذه الطبيعة ـ الخليقة ـ قد سخرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل قواها وطاقاتها ، لخدمة الإنسان ، فغدا عمرانها التحقيق للأمانة التى حملها الإنسان ، كخليفة لله ـ سبحانه وتعالى . . ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤] .

فالبحث فى هذه الطبيعة ، التى خلقها الله . . وخاطبها . . وسخرها للإنسان . .

والنظر فى سننها، والاكتشاف لأسرارها، عبادة لله، وقيام بالفريضة الإلهية التى كانت أولى فرائض الإسلام.. فريضة القراءة لآيات الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فالقراءة هنا قراءتان: قراءة لآيات الله الكونية والطبيعية ـ المودعة فى الطبيعة.. وقراءة لآيات الله المنزلة.. أى قراءة فى كتاب الله المنظور.. وقراءة فى كتاب الله المسطور.

بل إن القرآن قد جعل البحث والتجريب والاكتشاف لأسرار الله فى الطبيعة والكون، بواسطة العلوم الطبيعية والتجريبية، فى مقدمة الأسباب الداعمة للإيمان الدينى، والمفضية إلى أن يكون علماء هذه العلوم الطبيعية هم الأكثر خشية لله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

على حين كان المشتغلون بهذه العلوم الطبيعية والتجريبية ـ بنظر الكنيسة الأوروبية ـ هم المارقين والملاحدة، الذين تركوا البحث فى «المقدس» ـ اللاهوت ـ واشتغلوا بالتجريب فى «المدنس» ـ الطبيعة» وعلومها ـ !!.

لهذ الحقائق، التى مايزت بين الإسلام وبين نصرانية الكنيسة الأوروبية، عاشت أوروبا المسيحية عشرة قرون مظلمة ـ بدأت بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦م ـ الذى تزامن مع انتشار المسيحية فى أوروبا ـ وامتدت حتى اكتشاف «كريستوفر كولومبس» [١٤٥١ ـ ١٥٠٦م] لأمريكا سنة ١٤٩٢م.. وبدء الإصلاح الدينى على يد «مارتن لوثر» [١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م] فى القرن السادس عشر الميلادى.

أما الإسلام، فإنه ـ لتميزه.. ولتميز موقفه من الطبيعة ـ ولأنه دين ودولة وحضارة ـ قد سلك طريقا آخر.. اقترن فيه الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية والمدنية بالإبداع فى العلوم الشرعية.. وكانت فيه الطبيعة وعلومها وآيات الإبداع فيها هى السبيل إلى معرفة الله وعظمته وقدرته.. وهى السبيل إلى خشيته.. بينما أدى الغلو العلمانى ـ

الذى جاء رد فعل للغلو الكنسى إزاء الطبيعة ـ إلى أن صاح الذين أحلوا العلم الطبيعى محل الله، صيحتهم المنكرة التى قالوا فيها: «لقد مات الله»!!..

لقد برئ الإسلام من غلو احتقار الطبيعة.. ومن غلو تأليه الطبيعة.. حتى لقد رأينا الإبداع فى العلوم الشرعية والإلهية يجاور ويزامل الإبداع فى العلوم الطبيعية والتجريبية، ليس فقط فى المجتمع الإسلامى، وإنما فى عقل العالم المسلم، وفى المشروع الفكرى لكثير من علماء الإسلام.. فلم نعرف علماء للعلوم الشرعية.. وآخرين للعلوم الطبيعية. وإنما وجدنا تجسد هذه النظرة الإسلامية الجامعة بين عالم الغيب وعالم الشهادة.. بين قراءة آيات الله المسطورة فى كتاب الوحى وقراءة آيات الله المنظورة والمبثوثة فى الأنفس والآفاق.. وجدنا تجسد هذه النظرة الجامعة فى المشاريع الفكرية للكثير من علماء الإسلام، الذين جمعوا ـ فى ثقافتهم ـ بين «الشرعى» و«المدنى» فى المعارف والعلوم.. فكانوا «تجريبيين» «مؤمنين».. و«روحانيين ـ ماديين»؛ لأن الدين ـ فى حضارتهم ـ: وضع إلهى يسوق الإنسان لعبادة الله ولعمران الكون، ولإقامة دولته فى هذا العالم الطبيعى، مستعينا فى أداء أمانة الاستخلاف بكتابى «الوحى» و«الوجود».

ومن هؤلاء العلماء، الذين امتزجت فى إبداعاتهم العلوم الإلهية بالعلوم الطبيعية:

* أبو الوليد بن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] الذى كان الناس يفزعون إلى فتواه: فى «الفقه» كما يفزعون إلى فتواه فى «الطب».. فهو الطبيب المجرب.. والفقيه الأصولى المتكلم.. والحكيم.. إنه صاحب [كتاب الكليات] ـ فى الطب ـ و[بداية المجتهد ونهاية المقتصد] ـ فى الفقه ـ و[مناهج الأدلة فى عقائد الملة] و[فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ـ فى علم الكلام والتوحيد.

* وابن سينا، أبو على الحسين بن عبد الله [٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م] الذى كان «الشيخ الرئيس» فى «الشرعى» و«المدنى».. فى «الإلهيات» و«الطبيعيات».. فى «التصوف» و«النبات والحيوان» و«الهيئة».. فمن آثاره فى الطب: [القانون].. وفى الحكمة والإلهيات: [الشفاء] و[المعاد] و[أسرار الحكمة المشرقية].. وفى التجريب والطبيعة: [النبات والحيوان] و[الهيئة] و[أسباب الرعد والبرق].. إلخ..

* والبغدادى، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر [٤٢٩هـ ١٠٣٧م] الذى اشتهر بإبداعاته المتميزة فى أصول الدين.. والمبرزة فى الحساب.. وفى الهندسة.. حتى لقد قالوا: إنه كان يُدرّس فى سبعة عشر فنّا! ومن آثاره: [أصول الدين]، و[تفسير القرآن] و[معيار النظر]، و[التكملة فى الحساب]، و[رسالة فى الهندسة].. إلخ..

* والخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم [٥١٥هـ ١١٢١م] اللغوى.. والشاعر.. والفيلسوف.. والمؤرخ. والرياضى.. والفقيه.. والمهندس.. والفلكى!.. ولقد بقيت لنا من آثاره: [مقالة فى الجبر والمقابلة]، و[شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس]، و[الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما]، و[الرباعيات]، و[الخلق والتكليف].. وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، وتكامل الإبداع فيها..

* والفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر [٥٤٤ـ٦٠٦هـ ١١٥٠ـ ١٢١٠م] الذى كان الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعًا.. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: المعقول.. والمنقول.. وعلوم الأوائل».. ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: [مفاتيح الغيب]ـ فى تفسير القرآن الكريم ـ و[معالم أصول الدين]، و[لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات]، و[الخلق والبعث]ـ فى التوحيد وأصول الدين.. و[محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين]، و[نهاية العقول]، و[البيان والبرهان]ـ فى الفلسفة.. و[المباحث المشرقية]ـ فى التصوف ـ.. و[السر المكتوم]ـ فى الفلك ـ و[النبوات]ـ فى النبوة والرسالة ـ و[النفس]ـ فى علم النفس ـ.. كما أبدع فى الهندسة [كتاب الهندسة] و[كتاب مصادرات إقليدس].. إلخ.

هكذا تكامل وتزامل وامتزج «الشرعى» و«المدنى».. «الإلهى» و«الطبيعى».. «الروحى» و«المادى».. و«المنقول» و«المعقول» فى الإبداع الإسلامى، دونما تناقض، كذلك الذى رأيناه فى أوروبا النصرانية..

ذلك أن الإسلام قد جاء ليعلم الإنسان أن المقاصد من خلق الله له هى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]ـ لكنه

لم يحصر العبادة فى الشعائر وفى المحاريب . . بل لقد رأيناه يجعل الأرض والطبيعة كلها محرابًا ومسجدًا . . ! . . ورأيناه قد جعل عمران الكون وصلاح الدنيا ـ بالمعارف والعلوم الكونية والشرعية ـ من أفضل العبادات . . فالدنيا والطبيعة ليست «دنسا»، مقابلاً للدين «المقدس»، وإنما هى خلق الله، الذى يسبحه، والذى يتوقف «صلاح الدين» على صلاحه؛ لأن معارف الدنيا والأمن فيها هما شرط صحة العبادات وصلاح الدين . . حتى ليقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م]: **«إن نظام الدين لا يصلح إلا بنظام الدنيا . . فنظام الدين، بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من: الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمن . . فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية . . فبان، إذن، أن نظام الدنيا . . شرط لنظام الدين . .»**[٨] .

بل ووجدنا من فلاسفة الإسلام وعلماء الإلهيات فى الحضارة الإسلامية من يرى فى الاشتغال بأبحاث العلوم التجريبية قربة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعبادة من أفضل العبادات . . فالعلم الطبيعى، وتدبر حقائق الكون وسننه وقوانينه، واكتشاف أسرار الإبداع الإلهى فيه، هو السبيل لمعرفة الله، التى هى جوهر الدين، وباب الدخول إليه . . كما أنه هو السبيل إلى خشية الإنسان لربه، وهو المحقق لجوهر الشعائر والمناسك والعبادات ومقاصدها وثمراتها . . ولذلك، تحدث الجاحظ [١٦٣ ـ ٢٥٥هـ ـ ٧٨٠ ـ ٨٦٩م] عن هذا العلم الطبيعى **«الذى تتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلّة، والكهول العلية، حتى ليختارون النظر فيه على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، حتيل ليزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد»**[٩] .

فالطبيعة ليست مدنسة، بل هى مخلوق يسبح الخالق . . ومقامها فى الشرف هو مقام الحقيقة التى بدونها لا يعرف الإنسان الألوهية ولا التوحيد! . . فالجمع بين علومها وبين الإلهيات خصيصة من خصائص الفلسفة الإسلامية، وأمارة من أمارات التمكن من الصناعة والرياسة فى العلم الإسلامى . . وبعبارة الجاحظ: **«وليس يكون المتكلم جامعًا لأقطار الكلام، متمكنًا من الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذى**

يجمعهما، والمصيب هو الذى يجمع تحقيق «التوحيد» وإعطاء «الطبائع» حقها من الأعمال. ومن زعم أن «التوحيد» لا يصلح إلا بإبطال حقائق «الطبائع»، فقد حمل عجزه على الكلام فى «التوحيد»، وكذلك إذا زعم أن «الطبائع» لاتصح إذا قرنها «بالتوحيد». ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى «الطبائع». وإنما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفر على «التوحيد» إلى بخس حقوق «الطبائع»؛ لأن فى رفع «أعمالها» رفع «أعيانها»، وإذا كانت «الأعيان» هى الدالة على الله، فرفعت «الدليل»، فقد أبطلت «المدلول عليه». . ولعمرى! إن فى الجمع بينهما لبعض الشدة. . وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركنًا من أركان مقالتى. ومن كان كذلك لم ينتفع به!»[١٠].

فأعيان الطبيعة هى الدليل إلى الألوهية والتوحيد. . والتجريب هو السبيل إلى ذلك. . بينما احتقار الطبيعة، والانصراف عن علومها التجريبية، هو المعطل للدليل على معرفة الله وما له من صفات الكمال والتنزيه. .

* * *

ـ ٥ ـ

العقلانية الإسلامية

والإسلام لم يعرف التناقض بين «العقل» و«النقل». . فالنقل فيه ـ القرآن الكريم ـ معجزة عقلية **«عُرضت على العقل، وعرفته القاضى فيها، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها، ونشر ما انطوى. فى أثنائها. .»**[١١]. . والآيات التى تتحدث عن العقل ومقامه، وعن القلب وتعقله، وعن الحكمة، واللُّب، والنهى، والفقه، والاعتبار، والتفكر، والتدبر ـ فى القرآن الكريم ـ تقترب من ثلاثمائة آية:

فالنقل ـ فى الإسلام ـ معجزة عقلية. . والعقل ـ فى هذا الإسلام ـ هو سبيل فقه النقل، فهو الأساس للدين، ولا بناء بدون أساس. . وبعبارة الماوردى [٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ ٩٤٥ ـ ١٠٥٥م]: **«فإن السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها هو علم الحس، وهو العقل، لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول، إذ لا تُعرف الأصول إلا بحجج العقول. .»**[١٢].

وإذا كان النقل والشرع كالضياء والنور، فإن العقل كالبصر، وبدون العقل يصبح الناس عميانًا أو مغمضى الأجفان لا يستفيدون من ضياء الشرع ونور النقل. . وبعبارة حجة الإسلام الغزالى: **«فإن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء، ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء. . فالمعرض عن العقل، مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. . فالعقل مع الشرع نور على نور»**[١٣].

فالإسلام، ليس الكهنوت الكنسى الذى ناصب العقل ـ مع الطبيعة ـ الاحتقار والازدراء. . حتى لقد قال القديس الفيلسوف «أنسيلم» [١٠٣٣ ـ ١١٠٩م]: **«يجب**

أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك، بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك فى فهم ما اعتقدت، فليس الإيمان فى حاجة إلى نظر عقل [١٤]»!

الإسلام ليس هذا اللاهوت الكنسى، وإنما هو الدين الذى قال بعض فلاسفته ـ ومنهم أبو علىّ الجبائى [٢٣٥ ـ ٣٠٤هـ ٨٤٩ ـ ٩١٦م] ـ انطلاقًا من أوامر القرآن الكريم بالنظر ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ـ ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] . . قال كثير من فلاسفة الإسلام ـ انطلاقًا من هذا الأمر القرآنى بالنظر، أى التأمل والتدبر والتفكر والاعتبار ـ: **«إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر»**؛ لأن النظر هو السبيل إلى معرفة الله[١٥].

* * *

ـ ٦ ـ

الإبداع الحضارى المبكر.. لماذا؟؟

لهذه الحقائق، التى ميّزت الإسلام عن النصرانية ـ فى لاهوتها الكنسى ـ أقام الإسلام ـ فى أرض الواقع ـ مدنية وحضارة وإبداعًا فى العلوم الطبيعية، مع إقامة إنسانة الصلوات فى المساجد والمحاريب.. ولم يقف هذا التميز، فقط، عند الإبداع المبكر ـ منذ القرن الهجرى الأول: فى هذه الميادين، على حين تأخر إبداع الغرب النصرانى فى العلوم الطبيعية عشرة قرون: وإنما تميز الإسلام ـ فى هذا الميدان ـ أيضًا بإقامته المدنية والحضارة والإبداع فى العلوم الطبيعية، انطلاقًا من الدين، وبحافز الدين، وتحقيقًا لمقاصد الدين، وإرضاء وقربة وعبادة لرب هذا الدين.. وليس ـ كما حدث فى الغرب ـ على أنقاض الدين، وبعد العلمنة، التى مثلت ثورة على الدين، وفى ظل الحداثة، التى مثلت «دين العلم.. الدين الطبعى» الذى حل محل الدين الإلهى!..

لهذه الحقائق، بدأ الإحياء الإسلامى للمواريث العلمية ـ مواريث العلوم الطبيعية والكونية ـ فى الحضارات السابقة.. وبدأ تمثل الإسلام لهذه المواريث.. و**«بدأ الإنتاج الفكرى العلمى فى الإسلام منذ القرن الأول للهجرة».. أى منذ اللحظة التى بدأ فيها تكوين المجتمع الإسلامى فى منتصف القرن الهجرى الأول.. فهذا المجتمع قد «تكوّن من بيئات شتى، وثقافات مختلفة، وألسنة متباينة، فأصبح ـ فى الواقع ـ مقرًا لاتصال أصحاب المدارس العديدة، وتلاقح أفكارها، بعد أن كانت قبله مفصولة بعضها عن بعض، وكان تأثرها ببعضها غائبًا تقريبًا»**[١٦].

ومن الشهادات التى شهد بها العلماء الثقاة، على أن هذا الإبداع المبكر فى العلوم المدنية والطبيعية إنما كان ثمرة من ثمرات الدين الإسلامى، شهادة العالم الحجة فى تاريخ العلم: الدكتور فؤاد سيزكين، التى يقول فيها: **«إن هناك دافعًا خطيرًا أسهم إلى**

حد كبير فى محاولة المسلمين أخذ ما لدى غيرهم من الأمم من علوم ومعارف دون عوائق . . وهذا الدافع يتضح مما أوجزه «فرانس روزنتال» فى كتابه [استمرار علوم الإغريق القدماء فى الإسلام] حيث قال : «ليس يكفى الدافع النفعى العملى، أو النظرى ليعلل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية، بل لا بد من فهم موقف الدين الإسلامى ذاته من العلم . . وموقفه هذا كان المحرك الكبير لا للحياة الدينية فحسب، بل للحياة الإنسانية فى جميع جوانبها، وموقف الإسلام هذا هو الدافع الأكبر فى السعى وراء العلوم، وفى فتح الأبواب للوصول إلى المعارف الإنسانية، ولولاه لانحصرت الترجمة فى أشياء ضرورية للحياة العملية وحدها . .»[١٧] .

فموقف الإسلام من العلم، كان العامل المؤثر فى التمثل المبكر والإبداع المبكر للمسلمين فى ميادين العلوم الطبيعية والكونية والحضارية .

* * *

ويلفت ابن النديم [٤٣٨ هـ ١٠٤٧ م] ـ صاحب [الفهرست] ـ النظر إلى أن البحث عن مواريث السابقين، والنظر فيها، والتدوين لعلومها ومعارفها، إنما بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول، على عهد معاوية بن أبى سفيان [٢٠ق . هـ ـ ٦٠هـ ٦٠٣ ـ ٦٨٠م] . . وذلك عندما يذكر **أن «عبيد بن شرية [٥٦٧هـ ـ ٦٨٦م] ـ وهو جاهلى، أدرك الإسلام، وأسلم ـ وفد على معاوية، فسأله معاوية عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة ـ [أى اختلافها] ـ وأمر افتراق الناس فى البلاد؟ ـ وكان استحضره من صنعاء اليمن ـ فأجابه إلى ما أمر به، فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية . وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن مروان [٢٦ ـ ٨٦هـ ـ ٦٤٦ ـ ٧٠٥م]، وله من الكتب [كتاب الأمثال] و[كتاب الملوك وأخبار الماضين] . . .»**[١٨] .

فالتدوين لمعارف وعلوم الأوائل قد بدأ فى النصف الأول من القرن الهجرى الأول . . وليس فى العصر العباسى ـ كما شاع عند الكثيرين ـ . .

* * *

ولقد أصبحت الترجمة لعلوم الصنعة ـ العلوم الطبيعية ـ وإحياء تراث مدرسة الإسكندرية فى هذه العلوم «صناعة إسلامية كبرى» يتفرغ لها كوكبة من المترجمين والعلماء منذ القرن الهجرى الأول . . وكان الأمير الأموى «خالد بن يزيد» [٩٠هـ ٧٠٨م] على رأس العلماء المتبتلين فى هذا الإحياء والتمثل والإبداع العلمى . . وكما يقول صاحب [الفهرست] : **«فإن خالد بن يزيد كان يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً فى نفسه، خطيبًا شاعرًا، فصيحًا حازمًا، جوادًا ذا رأى، وله همة ومحبة فى العلوم . . ولقد خطر بباله نقل علوم الصنعة إلى العربية، فأحضر جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى . وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة . . كما نقل له «اصطفن القديم» [الإسكندرى] كتب الصنعة وغيرها . .»**[١٩] .

وخالد بن يزيد هذا ـ كما يضيف صاحب [الفهرست] ـ **«هو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . ويقال إنه قيل له :**

ـ لقد فعلت أكثر شغلك فى طب الصنعة ـ [أى تخصصت وتفرغت لهذه العلوم] ـ فقال :

ـ ما أطلب بذلك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى . وأنا أريد أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحدًا عرفنى يومًا أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة!

ويقال ـ والله أعلم ـ إنه قد صح له عمل الصناعة، وله فى ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير فى هذا المعنى رأيت منه خمسمائة ورقة، ورأيت فى كتبه [كتاب الحرارات] و[كتاب الصحيفة الكبير] و[كتاب الصحيفة الصغير] وكتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة»[٢٠] .

فنحن هنا أمام ما هو أكثر من الترجمة للعلوم الطبيعية ـ علوم الصنعة ـ إلى العربية . . نحن هنا ـ أيضا ـ أمام تطبيقات عربية وإسلامية لهذه العلوم . . وبعبارة «ابن النديم» : فإن خالد بن يزيد **«قد صح له عمل الصناعة»** . . ومشروعه العلمى هذا كان يريد به خلق دولة للعلم والعلماء، توازى ـ إن لم تتفوق ـ على دولة السياسة

والخلفاء . . فهو بعد أن ذهبت عنه الخلافة، أراد أن يغنى العلماء ـ ومن ثم الأمة ـ «عن الوقوف بباب السلطان، رغبة أو رهبة»! . .

فمنذ القرن الهجرى الأول، تخلّقت فى الحضارة الإسلامية والاجتماع الإسلامى نواة «سلطنة العلماء»، التى تعصم أركانها من الوقوف بأبواب الأمراء! . .

ونحن هنا أمام إبداعات رأى كتبها صاحب [الفهرست] . . بل وأمام صياغات شعرية ومنظومات أدبية لحقائق وقوانين هذه العلوم الطبيعية ـ على عادة العرب فى تركيز الفنون والمتون ـ رأى منه ابن النديم خمسمائة ورقة لخالد بن يزيد وحده! . .

ويدعم هذه الحقيقة ـ حقيقة التطبيقات الإسلامية المبكرة للعلوم الطبيعية ـ قول «ابن عساكر» [٤٩٩هـ ١١٠٥م] عن خالد بن يزيد: إنه قد مارس تجارب تحلية مياه البحر المالحة، وتحويلها إلى مياه عذبة! . وأنه قد قال لأصحابه: **«إن شئتم أعذبُ لكم ماء البحر؟ فأتى بقلال من ماء . . ثم وصف كيف يصنع به حتى تعذب . .»**![٢١].

وخالد بن يزيد هذا هو الذى قال فيه خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز [٦١ ـ ١٠١هـ ٦٨١ ـ ٧٢٠م] ـ تقديراً لمكانة العلم الذى أشرف على ترجمته وتدوينه والإبداع فيه ـ: **«ما ولدت أمية مثل خالد بن يزيد. لا أستثنى من ذلك عثمان ولا غيره»**[٢٢]! . . فقدمه على عثمان بن عفان [٤٧ق. هـ ـ ٣٥هـ ٥٧٧ ـ ٦٥٦م] ـ عليهم جميعًا رضوان الله . .

ولعل هذه الكلمات أن تلفت الأنظار إلى البعد العلمى وإلى مقام العلم الطبيعى فى عقل وفكر ودولة وإنجازات الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ـ وهو بُعد لم يلتفت إليه أحد ـ فلقد وقف دارسوه عند تقواه وورعه، وإحيائه السنة وتدوينه لها، وإماتته البدعة ومحاربته إياها . . وعند ثورته الإصلاحية التى رد بها المظالم إلى أهلها . . وعند إحيائه للشورى . . وإقامته للسلام العام فى المجتمع ـ بل لقد زعم البعض أنه لم يكن «رجل دولة»[٢٣]! . . لكن استقراء تاريخ العلم الطبيعى ـ فى الحضارة الإسلامية ـ يكشف عن إنجازات هذا الراشد الخامس ـ عمر بن عبد العزيز ـ فى القرن الهجرى الأول ـ فى هذا الميدان . . **ففى عهده عمم تدريس الطب «بعد أن كان بالإسكندرية . . ويقول ابن أبى أصيبعة [٥٩٦ ـ ٦٦٨هـ ١٢٠٠ ـ ١٢٧٢م] فى [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] عن ابن أبجر الكنانى: «كان طبيبًا عالمًا ماهرًا، وكان فى أول أمره مقيمًا فى**

الإسكندرية؛ لأنه كان المتولى فى التدريس بها من بعد الإسكندرانيين. . وذلك عندما كانت البلاد فى ذلك الوقت لملوك النصارى ـ [الرومان] ـ ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية، أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز ـ وكان حينئذ أميرًا قبل أن تصل إليه الخلافة ـ وصَحبهُ، فلما أفضت الخلافة إلى عمر سنة تسع وتسعين للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكية وحران، وتفرق فى البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر، ويعتمد عليه فى صناعة الطب»[٢٤].

فعمر بن عبد العزيز ـ فى القرن الهجرى الأول ـ هو الذى عمم تدريس الطب فى حواضر الدولة الإسلامية، بعد أن كان وقفًا على الإسكندرية.

ولقد بدأت اهتمامات عمر بن عبد العزيز بهذا الميدان قبل إمارته وخلافته. . وإلى هذه الحقيقة يشير صاحب [طبقات الأطباء والحكماء] فيقول: **إن أول كتاب فى الطب ترجم إلى العربية هو [كناش] القس «أهرن بن أعين» ـ من أهل الإسكندرية ـ وهو فى ثلاثين مقالة «وجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب، فأمر بإخراجه، ووضعه فى مصلاه، فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له فى ذلك أربعون صباحًا أخرجه إلى الناس وبثه فى أيديهم». وكان مترجمه هو «ماسرجويه» الطبيب البصرى ـ وكان يهوديًا سريانيًا. .**[٢٥].

هكذا، كانت المحاريب، وكانت استخارة الله ـ سبحانه وتعالى ـ الطريق الذى سلكته الحضارة الإسلامية لإحياء العلوم الطبيعية وتعميمها بين الناس. . بعد أن ظلت مواريث تلك العلوم حبيسة الصناديق الحديدية لعدة قرون؛ بسبب الكهنوت الذى أقام العداء بين هذه العلوم ولاهوت المحاريب!

* * *

وفى هذه المرحلة المبكرة، أصبحت الترجمة صناعة كبرى، فتحت النوافذ أمام العقل المسلم والحضارة الإسلامية على كل مواريث العلوم فى مختلف الحضارات التى سبقت ظهور الإسلام. . حتى ليذكر ابن النديم ـ فى [الفهرست] ـ أسماء أكثر من سبعين من التراجمة عن اليونانية والسريانية والفارسية والهندية إلى العربية[٢٦]. وهى كل لغات العلم العالمى فى ذلك التاريخ ـ ومن نماذج هؤلاء المترجمين:

ـ «يوحنا بن ماسويه» [١٩٠ ـ ٢٦٠هـ ٨٠٩ ـ ٨٧٣م] الذى قلده هارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣هـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩م] ترجمة الكتب القديمة (الطبية) التى وجدت بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم . . ووضعه أمينًا على الترجمة، ووضع له كُتّابًا حذاقًا يكتبون بين يديه . . وخدم الرشيد والأمين [١٧٠ ـ ١٩٨هـ ٧٨٧ ـ ٨١٣م] والمأمون [١٧٠ ـ ٢١٨هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣م] وبقى على ذلك إلى زمن المتوكل [٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ ٨٢١ ـ ٨٦١م] . .[٢٧] .

ـ و«يوحنا بن البطريق» الذى تولى أمانة الترجمة على عهد المأمون . . وترجم كثيرًا من كتب الأوائل : . وترجم كتاب أرسطوطاليس [٣٨٤ ـ ٣٢٢ق . م] إلى الإسكندر [٣٥٦٦ ـ ٣٢٤ق . م] ـ المعروف بسر الأسرار، وهو كتاب السياسة فى تدبير الرياسة ـ من اللسان اليونانى إلى اللسان الرومى، ثم من اللسان الرومى إلى اللسان العربى ـ ولقد عانى فى طلب أصل هذا الكتاب «فقصد الهياكل ـ [المعابد] فى البحث عنه، حتى وصل إلى هيكل عيد الشمس، الذى كان بناه «هرمس الأكبر» لنفسه يمجد الله تعالى فيه . قال : فظفرت فيه بناسك متعبد مترهب، ذى علم بارع، وفهم ثاقب، فتلطفت به، وأعملت الحيلة عليه، حتى أباح لى مصاحف ـ [كتب] الهيكل المودعة فيه، فوجدت فى جملتها المطلوب الذى نحوه قصدت وإياه اتبعت ـ الذى أمرنى أمير المؤمنين ـ [المأمون] ـ بطلبه مكتوبًا بالذهب، فرجعت إلى الحضرة المنصورة ظافرًا بالمراد»[٢٨] .

ـ «وحنين بن إسحاق» [١٩٤ ـ ٢٦٠هـ ٨١٠ ـ ٨٧٣م] ـ تلميذ يوحنا بن ماسويه ـ كان عالمًا بلسان العرب، فصيحًا باللسان اليونانى جدًا ـ تعلمه بالإسكندرية ـ بارعًا فى اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين .

ومما يشهد على أن النشاط العلمى فى هذه العلوم الطبيعية قد استمر حتى فى اللحظات التى اضطهد فيها التيار العقلانى ـ المعتزلة ـ أن «حنين بن إسحاق» ـ هذا قد اختير للترجمة، وائتمن عليها . . ووضع المتوكل له كُتّابًا نحارير عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا . . وهو الذى أوضح ـ فى عهد المتوكل ـ معانى كتب «بقراط» [٤٦٠ ـ ٣٧٧ ق . م] و«جالينوس» [١٣١ ـ ٢٠١ ق . م] ولخصها أحسن تلخيص، وكشف ما استغلق منها، وأوضح مشكلها . . وعمد إلى كتب «جالينوس» فاحتذى فيها حذو الإسكندرانيين، فصنعها على سبيل المسألة والجواب، فأحسن فى

ذلك . . وله كتاب صناعة المنطق، لم يسبق إلى مثله غيره، لحسن تقسيمه، وبراعة نظامه . .[٢٩] . . فاستمر النشاط فى العلوم الطبيعية حتى فى عهد المتوكل العباسى، الذى اضطهد المعتزلة والمتكلمين!

ثم نبغ الكندى، أبو يوسف يعقوب بن صباح الكندى [١٨٥ ـ ٢٦٠هـ ـ ٧٩٦ ـ ٨٧٣م] الذى كان عاملاً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والهيئة والنجوم وطبائع الأعداد واللحون . . وترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها مشاكلها، ولخص المستصعب، وبسط العويص . . وألف فى التوحيد كتابًا على طريق أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان لم يسبقه إلى مثله أحد . . وكتاب فى إثبات النبوة، بذات المنهاج . .[٣٠] . . فبرهن بالعقل على التوحيد . . وعلى النبوات . . حتى قال «البيهقى» [٤٩٩ ـ ٥٦٥هـ ١١٠٦ ـ ١١٧٠م] عن فلسفة الكندى: إنه قد جمع فى بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات.

ولقد أوجز الكندى ـ فى رسالته إلى «المعتصم بالله» [١٧٩ ـ ٢٢٧هـ ٧٩٥ ـ ٨٤١م] منهاج الحضارة الإسلامية فى الانفتاح على الحضارات العالمية، فقال: «. . **وينبغى أن لا نستحى من الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا، فإنه لا شىء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغى بخس الحق ولا التصغير بقائله، ولا بالآتى به، ولا أحد بخس بالحق، بل كل يشرفه الحق . . ومن أوجب الحق أن لا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزلية، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية، فإنهم وإن قصروا عن بعض الحق، فقد كانوا لنا أنسابًا وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم، التى صارت لنا سبيلاً وآلات مؤدية إلى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقته، ولا سيما إذ هو بيّن عندنا وعند المبرزين من المتفلسفين قبلنا من غير أهل لساننا .**

إنه لم ينل الحق ـ بما يستأهل الحق ـ أحد من الناس بجهد طلبه، ولا أحاط به جميعه، بل كل واحد منهم إما لم ينل منه شيئًا، وإما نال منه شيئًا يسيرًا بالإضافة إلى ما يستأهل الحق، فإذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم، اجتمع من ذلك شىء له قدر جليل. فينبغى أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق، فضلاً عمن أتى بكثير من الحق، إذ أشركونا فى ثمار فكرهم، وسهّلوا لنا المطالب الخفية، بما أفادونا من

المقدمات المسهلة لنا سبل الحق، فإنهم لو لم يكونوا، لم يجتمع لنا مع شدة البحث فى مددنا كلها هذه الأوائل الحقّية، التى بها تخرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الخفية، فإن ذلك إنما اجتمع فى الأعصار المتقادمة عصرًا بعد عصر إلى زماننا هذا، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب فى ذلك»[٣١].

بهذا المنهاج، الذى ظل متبعًا فى تاريخ العلم الإسلامى، تفتحت نوافذ العقول الإسلامية على المواريث الفكرية والعلمية فى كل الحضارات.. ورأينا هذا المنهاج عند أبى الوليد بن رشد، الذى قال: **«إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك.. سواء أكان مشاركًا لنا فى الملة أو غير مشارك فى الملة.. فننظر فيما قالوه من ذلك، فإن كان صوابًا قبلناه منهم، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه..»**[٣٢].

وحتى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ ـ ١٣١٤هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] الذى قال: **«إن أبا العلم وأمه هو الدليل.. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل»**..

ومن قبل جميع هؤلاء، حديث رسول الله، ﷺ: **«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها»** رواه الترمذى وابن ماجة..

* * *

ومن الذين نبغوا: فى العلوم الطبيعية والكونية ـ أبناء شاكر: محمد بن موسى بن شاكر [٢٥٩هـ ٨٧٣م]. وأحمد بن موسى بن شاكر [كان حيًا قبل ٢٥٩ هـ ٨٧٣م] ووالدهما: حسن بن موسى بن شاكر [٢٠٠هـ ٨١٥م].. والذين مثلوا نموذجًا للمؤسسات «الأكاديمية» الأهلية فى المجتمع الإسلامى.. فأنجزوا إنجازات كبرى فى الرياضيات وعلم الهيئة والحيل والنجوم والفلسفة والموسيقى.. وأقاموا لذلك مجمعا للترجمة والتأليف.. حتى ليقول صاحب [الفهرست].. **«إنهم قد بذلوا الرغائب، وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلاد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثماطيقى والطب».. وأقاموا نظام «التفرغ» للترجمة والتأليف.. وكانوا «يرزقون حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة [٢٢٠ ـ ٢٨٧هـ ٨٣٥ ـ ٩٠٠م] وغيرهم فى الشهر خمسمائة دينار»**[٣٣].

* * *

وغير هذا الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة والتجريب والعلوم الطبيعية . . وثمرات هذا الموقف فى التمثل المبكر والإبداع المبكر فى ميادين هذه العلوم وتطبيقاتها . . يشير مؤرخ العلوم الإسلامية الدكتور فؤاد سيزكين إلى لون آخر من التميز الإسلامى فى هذا الميدان . . وهو النظرة الإسلامية إلى أصحاب تلك المواريث العلمية القديمة . . وكيف تميزت هذه النظرة الإسلامية عن نظرة اللاتين عندما نقلوا العلوم عن الآخرين . . يشير الدكتور فؤاد سيزكين إلى ذلك، فيقول: **«إن عملية الأخذ والتمثل قد تمت لدى اللاتين على غير الصورة التى تمت بها عند العرب؛ ذلك أن المسلمين اهتدوا إليها بوساطة الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وبواسطة مواطنيهم أصحاب المعارف الأجنبية. أما عند اللاتين فكانت على صورة أخرى . . لقد كانوا - أعنى اللاتين - مضطرين إلى أخذ المعارف، وإلى أخذ أنظمة المؤسسات المختلفة، وإلى أخذ أساليب الجامعات وبرامجها من الأعداء السياسيين والدينيين. لقد كانوا يشعرون بشعور المعاداة والبغضاء تجاه من يأخذون عنهم، وانعكس ذلك على عملية الأخذ بصورة عقد نفسية، وطبيعى بعد هذا أن يفقدوا عنصرى الوضوح والصراحة، وهما العنصران الأصليان فى عملية أخذ المسلمين عن الآخرين»**[٣٤].

نعم. لقد كان اللاتين - إبان نهضتهم - يأخذون عن من يعتبرونهم «أعداء . . هراطقة» وعن من يعتبرونهم دونهم فى سلم الإنسانية . . ولذلك افتقر نقلهم - كما يقول الدكتور سيزكين - إلى الوضوح والصراحة، فلم يذكروا المصادر ولا الأسماء التى نقلوا عنها فى الأغلب الأعم، فكان نقلاً أقرب ما يكون إلى «السرقة»! . . بينما كان النقل الإسلامى واضحًا صريحًا موثقًا . . فهم يقومون بواجب دينى، هو الإحياء لمواريث الإنسانية، وينهضون بفريضة إلهية هى النظر فى آثار الأمم والشعوب والقراءة لآيات الله المبثوثة فى الأنفس والآفاق، والتى نظر فيها الأولون، الذين ينقل عنهم المسلمون . . وذلك فضلاً عن أن هذا النقل إنما كان يتم من مراكز علمية وحضارية كانت جزءًا من دار الإسلام، ويقوم به مسلمون أو أهل الكتاب، هم جميعًا أمة واحدة تعيش فى دار الإسلام.

لقد أحيا المسلمون العلوم التى قبرتها النصرانية لعدة قرون!

وأشركوا ـ فى هذا الإحياء العلمى ـ التراجمة غير المسلمين، الذين حالت عقائدهم الدينية بينهم وبين الاشتغال بالعلم لعدة قرون!

كل ذلك بفضل الموقف الإسلامى المتميز من الطبيعة.. والعلم الطبيعى.. والحقيقة العلمية بوجه عام!

* * *

وبعد مرحلة النقل والتمثل لمواريث الحضارات القديمة فى العلوم والمعارف.. وبعد بواكير التطبيقات الإسلامية لحقائق وقوانين هذه العلوم.. جاءت مرحلة النضج للعقل العلمى الإسلامى، والتى تجلت فى المراجعة والاختيار والتجريب لكثير من نظريات تلك العلوم.. ومن ثم النقد والتصحيح والتطوير لكثير منها.. ثم الإضافات الإبداعية فى ميادينها.. كل ذلك بفضل براعة المسلمين فى التجريب، وإبداعهم للمنهج التجريبى ـ الذى جاء ثمرة لموقف الإسلام من الطبيعة ومن العمل والتجريب فى أنحائها..

ويتحدث الدكتور فؤاد سيزكين عن هذه المرحلة من مراحل العلم الإسلامى، فيقول: **«ولسنا نخالف الحقائق التاريخية إذا اعتبرنا أن مرحلة «الأخذ والتمثل» تنتهى فى أواسط القرن الثالث الهجرى إلى مرحلة الإبداع.. وذلك بإدراك العلماء المسلمين بأنفسهم أنهم قادرون على الإبداع، وهم قادرون بالتالى على أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه الإغريق من قبلهم.**

فالإخوة الثلاثة المشهورون ببنى موسى، والذين كانوا يقومون بعمل مشترك فى دراستهم لأرخميدس [٢٨٧ ـ ٢١٢ق.م] وأبلونيوس [٢٦٠ ـ ٢٠٠ق.م] كانوا يحاولون الوصول إلى تحديد الرقم اليونانى أدق مما وصل إليه القدماء، وإلى حد جديد لمسألة تقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية، وقد كانوا يصححون ما وقع لأبولونيوس فى كتابه [المخروطات] على رأيهم..

كذلك نذكر فى ميدان الرياضيات أن الماهانى [كان حيا قبل ٢٦٠هـ ٨٧٤م] حاول فى أواسط القرن الثالث من الهجرة أن يجد الحل العددى لمعادلة من الدرجة الثالثة.

وفى ميدان الطب والبصريات كان الرازى [٢٥١ ـ ٣١١هـ ٨٦٥ ـ ٩٢٣م] يرد على إقليدس وجالينوس قولهما فى كون رؤية الأشياء تتكون بخروج الرؤية من العين إلى

الأشياء، ويصرح الرازى بأن الرؤية تحدث بوصول الضياء من المادة إلى العين، كما يرى أن حدقة العين تتغير كبراً وصغراً بمقدار قوة الضياء الذى يدخل فيها.

ونرى مثلا أن الكندى ينصرف عن معظم ما توصل إليه أرسطوطاليس والعلماء اليونانيون الآخرون فى ميدان الآثار العلوية (ميثاورولوجيا) ويأتى بآراء خطيرة لا يختلف بعضها عن النتائج الحديثة»[٣٤].

ويقول «ألاردغور» عن كتاب عبد الرحمن الصوفى [٢٩١ ـ ٣٧٦ هـ ٩٠٣ ـ ٩٨٦م] [كتاب الكواكب الثابتة]: إنه أصح من كتاب «بطليموس» [٩٠ ـ ١٦٨م] وزيجه أصح زيج وصل إلينا من كتب القدماء.. وأكثر الأقدار التى أوردها الصوفى مثل أقدارها المعتمد عليها الآن فى أزياج «اجلندر» و«هيس» [١٨٦٦ ـ ١٩٤٩م].. وفى كتاب الصوفى هذا ـ [كتاب الكواكب الثابتة] ـ صور الأبراج والصور السماوية فى هيئة أناسى ملونة.

وللبتانى [٣١٧هـ ٩٢٩م] [زيج الصابى].. الذى يقال إنه أصح من زيج بطليموس.. ومن كتب الكوهى: [كتاب الزيادات على أرخميدس فى المقالة الثامنة.. وللأمير أبو نصر منصور بن على بن عراق [٤٢٥هـ ١٠٣٤م] [رسالة فى حل شبهة عرضت فى الثالثة عشرة من كتاب الأصول][٣٥]. وللرازى ـ محمد بن زكريا ـ [كتاب الشكوك والمناقضات التى فى كتب جالينوس].. هذا غير تحقيقه لصناعة الكيمياء ـ التى ألف فيها أربع عشرة مقالة.. وتآليفه فى الجبر»[٣٦].

ولابن الصلاح ـ نجم الدين أبى الفتوح أحمد بن محمد السرى ـ [المتوفى بدمشق سنة نيف و٤٥٠هـ] ـ [كتاب المقالات السبع] الذى انتقد فيه عدداً من العلماء القدماء، منهم أرسطو فى المقالة الثانية من [كتاب البرهان].. والمقالة الثالثة عن كتاب [السماء والعالم].

وللسموأل بن يحيى بن عباس المغربى [٥٧٠هـ ١١٧٥م] [كتاب الباهر] ومن مباحثه «تعليل ما زعم «فيثاغورس» [القرن السادس ق.م] أنه أدركه بطريق الوحى».

كما كانت لابن باجة [٥٣٣هـ ١١٣٩م] ملاحظات قيمة على نظام بطليموس فى الفلك، وقد انتقده، وأبان مواضع الضعف فيه.. وكذلك صنع ابن طفيل [٤٩٤ ـ ٥٨١هـ ١١٠٠ ـ ١١٨٥م] فى نقد بطليموس أيضاً.

وقد تنبه نصير الدين الطوسى [٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ ١٢٠١ ـ ١٢٧٤م] لنقص أقليدس [القرن الثالث ق. م] فى قضية المتوازيات. . كما انتقد ـ فى كتابه [التذكرة فى علم الهيئة] [كتاب المجسطى] واقترح نظامًا جديدًا للكون أبسط من النظام الذى وضعه بطليموس. . ويعترف مؤرخ العلم «سارطون» [١٨٨٤ ـ ١٩٥٦م] بأن الانتقاد الذى وضعه الطوسى للمجسطى يدل على عبقريته وطول باعه فى الفلك. . ويمكن القول إن انتقاد الطوسى هذا كان خطوة تمهيدية للإصلاحات التى تقدم بها «كوبرنيكس» [١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م].

ومن مؤلفات ابن الهيثم [٣٥٤ ـ ٤٣٠هـ ٩٦٥ ـ ١٠٣٩م] [كتاب حل شك أقليدس]. .

ومن مؤلفات الخيام [٥١٥هـ ـ ١١٢١م] كتاب [شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس] و[مقالة فى الشكوك على بطليموس].

ومن مؤلفات قسطا بن لوقا البعلبكى [٣٠٠ هـ ـ ٩١٢م] [كتاب شكوك كتاب أقليدس].

ومن مؤلفات العباس بن سعيد الجوهرى [ظهر حوالى سنة ٨٣٠م] [كتاب الأشكال التى زادها فى المقالة الأولى من أقليدس].

ولقد أجرى أمير سمرقند «أولغ بك بن شاه روخ بن تيمور [٧٩٦ ـ ٨٥٣هـ ١٣٩٣ ـ ١٤٤٩م] أرصادًا صححت بعض الأرصاد التى قام بها اليونان، وذلك عندما رأى أن حساب التوقيعات للحوادث ـ وفق التجارب والأرصاد ـ لا يتفق مع ما قرره بطليموس[٣٦].

وهكذا ـ بعد النقل والتمثل لعلوم الأولين ـ قاد المنهج التجريبى علماء المسلمين إلى المراجعة والنقد والشكوك والتصحيح لما ترك الأولون. . ثم توالت إبداعات الإضافة والتطوير بعد الإبداع فى المراجعة والتصحيح.

ولعلنا ندرك مدى الأمانة العلمية، والتقدير لما أبدعه القدماء، حتى أثناء المراجعة لتراثهم، والنقد له، والتصحيح لأخطائه. . ندرك مدى هذه الأمانة والعظمة العلمية الإسلامية، التى جعلت العلم والحقيقة «رحما» بين بنى الإنسان. . ندرك

ذلك، ،ونحن نقرأ كلمات الخيام فى كتابه [مقالة فى الشكوك على بطليموس]. . والتى يقول فيها: **«إن الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعنى طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر. . ولما نظرنا فى كتب الرجل المشهور بالفضيلة. . أعنى «بطليموس القلوذى»، وجدنا فيها علومًا كثيرة، ولما خصمناها وميزناها. . وجدنا فيها مواضع شبهة وألفاظًا بشعة ومعانى متناقضة. . إلا أنها يسيرة فى جنب ما أصاب فيه من المعانى الصحيحة. ورأينا أن فى الإمساك عنها هضمًا للحق وتعديا عليه. . ووجدنا أن أولى الأمور ذكر هذه المواضع وإظهارها، ثم نجتهد بعد ذلك فى سد خللها وتصحيح معانيها، ولسنا نذكر فى هذه المقالة جميع الشكوك التى فى كتبه. .»**[٣٧].

إنها حضارة العدل والحق، التى صنعت مناهج هؤلاء العلماء العظماء!. .

* * *

وإذا كان الإسلام قد تميز عن الرسالات السماوية التى سبقته، بإقامته «للدولة» التى تحرس «الدين»، والتى يسوسها هذا الدين. كما تميز بتكوينه «لأمة. . وجماعة». . و«بوطن» هو الوعاء «للأمة» و«الدين». . كما تميز بإبداعه «للحضارة والمدنية»، كأثر من آثار تطبيقاته «كدين». . كما تميز «بالعالمية»؛ لأنه لن يُبعث نذير فى أى مكان من هذا العالم، بعد بعثة رسول الإسلام؛ ﷺ. . وتميز ـ كذلك ـ «بخلود شريعته» إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها الشريعة التى ختم بها الله رسالات السماء والوحى الإلهى لبنى الإنسان.

إذا كان الإسلام قد تميز فى هذه الميادين عن الرسالات التى سبقته. . فلقد تميز فى حضارته بمنهاج «الوسطية الجامعة» فى النظر إلى «ذاتها» وإلى «غيرها» من الحضارات.

وإذا كان كتاب [الفهرست] لابن النديم [٤٣٨هـ ١٠٤٧م] قد مثّل باكورة علم إسلامى، ارتادت به الحضارة الإسلامية ميدان التصنيف للعلوم والفنون والعلماء والفرق والمذاهب والملل والنحل. . فإن فى هذا الكتاب ـ العمدة ـ معالم منهاج إسلامى فى النظر إلى العلاقات بين الحضارات.

فهو فى الديانات والمعتقدات والمذاهب يفرد لكل أمة مكانًا يحكى فيه عقائدها وكتبها والمبرزين من علمائها. . ويصنع ذلك ـ أيضًا ـ فى الحديث عن الأساطير والخرافات

والعزائم والسحر . . وذلك إشارة إلى سنة اختلاف الأمم فى الشرائع والملل والثقافات . .

وهو فى علوم الكلام، والفقه، واللغة والنحو، والآداب والسير والأنساب، والشعر، وعلوم القرآن والسنة، يقف عند إبداع العرب والمسلمين . . وذلك إشارة لتميز علوم الأمة الخاتمة ـ أمة الإسلام ـ عن نظائرها فى الأمم الأخرى .

وهو فى الفلسفة، والعلوم الطبيعية، وعلوم الصنعة ـ التطبيقية ـ يسوق أخبارها وأعلامها وكتبها فى تسلسل واحد، منذ النشأة وحتى عصره، عبر الأمم والتاريخ . . وذلك إشارة إلى أنها مشترك إنسانى عام، تتوارثه الأمم والحضارات، وتضيف إليه وتبدع فيه، وتتفاعل مع غيرها فى حقائق هذه العلوم وقوانينها .

الأمر الذى يزكى التمييز بين «العام ـ الإنسانى» و«ما هو خاص متميز» لدى كل أمة من الأمم وحضارة من الحضارات .

فإذا علمنا أن فلاسفة الإسلام ـ من الكندى [١٨٥ ـ ٢٦٠هـ ٧٩٦ ـ ٨٧٣م] إلى مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ ـ ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦م] ـ قد تميزت فلسفتهم عن الفلسفة اليونانية . . وأن الكثيرين منهم قد اشتغلوا بـ «الكلام والتوحيد» . . فكانت قراءة من درس منهم الفلسفة اليونانية قراءة بعيون إسلامية وعقل إسلامى، وذلك من خلال محاولاتهم التوفيق بين الفلسفة والدين، أو الجمع بين أرسطو [٣٨٤ ـ ٣٢٢ق . م] وأفلاطون [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م] . . ومن خلال الانتقادات التى أوردها على المقولات اليونانية، أو الشروح والإضافات التى بثوها أثناء شروحهم على هذه المقولات .

إذا أدركنا ذلك، علمنا أن العلوم الطبيعية وعلوم الصنعة ـ التطبيقات والتقنيات ـ قد كانت أرض الوحدة الفكرية الإنسانية . . على حين تمايزت المعتقدات والشرائع والملل والمناهج والثقافات والآداب والتصورات الفلسفية للوجود ولمكانة الإنسان فى هذا الوجود . . أى أن الأمم والحضارات قد تمايزت فى التكوين النفسى، وعمران النفس الإنسانية . . بينما اشتركت فى علوم التمدن المدنى، وعمران الواقع المادى، أى العلوم الطبيعية والدقيقة والتجريبية وتطبيقاتها . . فكانت علاقة «العموم والخصوص» هى التى «تجمع» وأيضًا «تمايز» بين الأمم والحضارات . .

* * *

-٧-

الخاتمة

هذا هو الإسلام - كما تجلى، بالحقائق، من خلال هذه الإشارات والشهادات . .

* دين التوحيد، الذى يبلغ فى التنزيه قمة التجريد . . فكل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك .

* وهو المصدق لما بين يديه من الكتب والنبوات والرسالات . . والمصحح والمضيف والمستوعب لمواريث النبوات .

* وهو دين القيمة . . والبينة . . والعلم . . والبرهان . .

* وهو دين النور والاستنارة والتنوير بالله . . والرسول . . والقرآن . . والحكمة .

* وهو دين العدل . . مع الذات . . ومع الآخرين . . ومع من نكره . . وحتى مع الذين يقاتلون أهله . .

* ودين التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف فى كل عوالم الخلق والأفكار . . مع التوحيد للذات الإلهية . . التى ليس كمثلها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

* ودين الحرية فى الاعتقاد؛ لأن الإيمان به : تصديق قلبى يبلغ مرتبة اليقين، فلا سلطان عليه إلا لله . . ومن المحال أن يتأتى بالإكراه . .

* وهو الدين الذى تفرد بتكوين «الأمة» و«الدولة» و«الوطن» و«الحضارة»، التى تتنوع فى إطارها الشعوب والقبائل والألسنة واللغات والقوميات والشرائع والملل والألوان والأجناس والعادات والتقاليد والأعراف . . فالوحدة فيها قائمة على التنوع، والتنوع فيها قائم فى إطار جوامع المشتركات .

* وهو الدين الذى جمع ـ فى مصادر المعرفة ـ بين عالمى الغيب والشهادة . . و ـ فى سبل المعرفة ـ بين العقل والنقل والتجربة والوجدان . . فامتزج فى ثقافة أمته «الشرعى» و«المدنى» و«الروحى» و«المادى» . . حتى لقد تدينت ـ فيها ـ الفلسفة ، وتفلسف الدين ! . .

* وهو الدين الذى مثل الإحياء العام . . للإنسان . . والأمة . . والحضارة . . وللمواريث العلمية التى أبدعها الأولون . . فكان إنقاذا لمواريث العلم الإنسانى من الضياع .

* وهو الدين الذى أدالت فتوحاته قوى الهيمنة والقهر والاستغلال ، فحرر الأوطان الشرقية . . وحرر ضمائر الشعوب . . وترك الناس ـ أحراراً ـ وما يدينون ، فكان المنقذ حتى للديانات التى لا يدين أهلها بالإسلام؟ . . بل والتى يجحد أهلها الإسلام الذى أنقذهم من الفناء ! !

* وهو الدين الذى تآخى فى ثقافته عالم الغيب والشهادة . . وآيات الكتاب الإلهى المسطور وآيات الكتاب الإلهى المنظور . . فكانت نظرته إلى «الطبيعة» باعتبارها «خليقة . . حية . . تؤمن بخالقها . . وتتجه إليه بالحمد والتسبيح» . . فكان إبداع حضارته مقترناً بإيمان إنسانه . . وكانت التجارب والمنهج التجريبى مظهراً لعبقرية أمته فى ميادين العلوم .

* * *

وهنا يسأل الإنسان :

ـ إذا كان هذا هو الإسلام . . الدين . . والحضارة . . فماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه؟ . . حتى ولو لم يكونوا من المؤمنين بثوابته فى الاعتقاد؟؟ . .

ماذا يستحق هذا الإسلام من الناظرين فيه . . والدارسين لحضارته . . ولتاريخ أمته؟! . . الإنصاف؟ . أم الافتراء؟! . .

* * *

الهوامش:

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ ـ ٢١ جمعها وحققها: د. محمد حميد الله الحيدر آبادى ـ طبعة القاهرة ـ سنة ١٩٥٦م.

(٢) ابن عبد الحكم: [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

(٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١ ـ ١٢٨.

(٤) الغزالى ـ أبو حامد: [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] ص ٦٠ ـ ٦٣ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

(٥) ابن عبد البر: [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

(٦) يوحنا النقيوسى: [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

(٧) د. صبرى أبو الخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢ ـ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.

(٨) الغزالى ـ أبو حامد: [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٥. طبعة مكتبة ومطبعة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

(٩) الجاحظ: [كتاب الحيوان] جـ١ ص ٢١٦، ٢١٧، تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة ـ الطبعة الثانية.

(١٠) المصدر السابق: جـ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

(١١) محمد عبده: [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(١٢) الماوردى: [أدب القاضى] جـ١ ص ٢٧٤. طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.

(١٣) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٣٢.

(١٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٣ ص ٢٧٩.

(١٥) د. على فهمى خشيم: [الجبائيان: أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣. طبعة طرابلس ـ ليبيا سنة ١٩٦٨م.

(١٦) د. فؤاد سيزكين: [مكان المسلمين والعرب فى تاريخ العلوم] مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية ـ عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦م ص ٣٦.

(١٧) المرجع السابق، ص ٣٧.
(١٨) ابن النديم: [الفهرست] ص ٨٩. طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م.
(١٩) المصدر السابق: ص ٢٤٢، ٢٤٤.
(٢٠) المصدر السابق: ص ٣٥٤.
(٢١) ابن عساكر: [تهذيب تاريخ ابن عساكر] جـ٥ ص ١١٩، ١٢٠ طبعة دمشق سنة ١٣٣١هـ.
(٢٢) ابن عبد ربه: [العقد الفريد] جـ٢ ص ٢٣٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.
(٢٣) انظر رد«فلهوزن» على هذا الرأى فى [تاريخ الدولة العربية] ص ٢٩٤ ـ ٣٠١. ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريده. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
(٢٤) ابن أبى أصيبعة: [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] ص ١٧١. طبعة بيروت سنة ١٩٦٥م، والنقل عن: خليل داود الزرو [الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة] ص ١٨٦. طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.
(٢٥) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى: [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦١، ٦٢، تحقيق: فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.
(٢٦) [الفهرست] ص ٢٤٤، ٢٤٥.
(٢٧) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٦٥.
(٢٨) المصدر السابق، ص ٦٧، ٦٨.
(٢٩) المصدر السابق، ص ٦٨، ٦٩.
(٣٠) المصدر السابق، ص ٧٣، ٧٤. و[الفهرست] ص ٢٥٥.
(٣١) قدرى حافظ طوقان: [تراث العرب العلمى] ص ١٧١، ١٧٣، ١٧٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.
(٣٢) ابن رشد (أبو الوليد): [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ سنة ١٩٩٩م.
(٣٣) [الفهرست] ص ٢٤٣.
(٣٤) د. فؤاد سيزكين، مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية ـ عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦م ص ٣٨، ٣٩.
(٣٥) [تراث العرب العلمى] ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٧٢.
(٣٦) [طبقات الأطباء والحكماء] ص ٧٧، ٧٨.
(٣٧) [تراث العرب العلمى] ص ٣٦٩، ٣٧٢، ٣٨٦، ٣٨٩، ٤١٢، ٣٠٥ ـ ٣٠٧، ٢٠٩، ٢١٣، ٤٤٦.

***

المصادر والمراجع

* **ابن أبى أصيبعة:** [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] ـ طبعة بيروت سنة ١٩٦٥م.
* **ابن جلجل:** [طبقات الأطباء والحكماء] تحقيق: فؤاد سيد ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.
* **ابن رشد (أبو الوليد):** [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ـ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.
* **ابن عبد البر:** [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.
* **ابن عبد الحكم:** [فتوح مصر وأخبارها] ـ طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.
* **ابن عبد ربه:** [العقد الفريد] ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.
* **ابن عساكر:** [تهذيب تاريخ دمشق] ـ طبعة دمشق سنة ١٣٣١هـ.
* **ابن النديم:** [الفهرست] طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م.
* **الجاحظ:** [كتاب الحيوان] تحقيق: عبد السلام هارون ـ طبعة القاهر ـ الطبعة الثانية.
* **خليل داود الزرو:** [الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة] طبعة بيروت سنة ١٩٧١م.
* **د. صبرى أبو الخير سليم:** [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ـ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
* **د. على فهمى خشيم:** [الجبائيان: أبو على وأبو هاشم] ـ طبعة طرابلس ـ ليبيا ـ سنة ١٩٦٨م.
* **الغزالى ـ أبو حامد:** [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] ـ طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
[الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.
* **د. فؤاد سيزكين:** [مكان المسلمين والعرب فى تاريخ العلوم] ـ مجلة «الثقافة» ـ الجزائرية ـ عدد مارس ـ أبريل سنة ١٩٨٦م.
* **فلهوزن ـ يوليوس:** [تاريخ الدولة العربية] ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.
* **قدرى حافظ طوقان:** [تراث العرب العلمى] ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

* **الماوردى:** [أدب القاضى] ـ طبعة بغداد سنة ١٩٧١م.
* **د. محمد حميد الله الحيدر آبادى:** [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ـ محقق ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
* **محمد عبده (الأستاذ الإمام):** [الأعمال الكاملة] ـ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.
* **يوحنا النقيوسى:** [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبد الجليل ـ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

* * *